١

اشتغالات إحالة العنونة

مع النص السردي

(زليخات يوسف)

للقاص علي السباعي أنموذجاً

د. جابر حسين جبر

الملخص

حظي العنوان باهتمام كبير في العصر الحديث من المبدعين بعد أن كان هذا الاهتمام غائب في السابق، ففي مجال الشعر على سبيل المثال كانت القصائد دون عنوان وذلك بأن يشار اليها بجنسها (معلقات، مجملات، نقائض، روميات) او قد تصف حسب غرضها الشعري، غزلاً او مدحاً او رثاءً او هجاءَ، والبدايات السردية العربية كان يشار اليها بعنوان رئيس دون عنوانات فرعية كالمقامات والف ليلة وليلة دون أن تحمل هذه العنوانات صفة دلالية لها علاقتها السردية الرمزية بمركزية الدلالة في القص.

Abstract

The title has received great attention in the modern era from creators after this interest was absent in the past. In the field of poetry, for example, poems were without a title, by referring to them by their type (Muallaqat, Summaries, Antitheses, Rhymes) or they may be described, according to their poetic purpose, as a Ahazal, or praise, lament, or satire, and the beginnings of Arabic narratives were referred to by a main title without subtitles such as Maqamat and Alef Leyla wa Leyla , without these titles carrying a semantic quality that had a symbolic narrative relationship to the centrality of significance in the story.

المقدمة

العنوان في النص الأدبي عالم مستقل بذاته وعلامة دلالية كاملة لها غواياتها المثيرة كمؤثر حواري مستفز لا يمكن للقارئ تجاوز عتبته، فهو دال مساهم فعّال في توضيح دلالة النص، فيكشف عن طبيعته ويفك غموضه وشفراته، وعلى وفق هذا بات على المبدع التخطيط البنّاء في وضع استراتيجية عنوانية فاعلة، لها نظامها اللّافت، والمشوّق،، لاسيما في النصوص السردية،

فهو سلطة مركزية رئيسة تؤسس لطاقة توجيهية هائلة، وحيل بلاغية مكثفة تستوقف الذهن وتنشط خياله بشحناته الانزياحية، فضلاً عن وظيفته الجمالية الهندسية المعمارية، ولهذا فللعنونة طاقة فنية جمالية آسرة تنتهج أفعال المراوغة والاختلاف والإرجاء في استدراج محاورها وإكراهها على الرضوخ لفتنتها الآخذه، كما لها أيضاً قوتها الاختصارية التي تضمن سرعة استجابة الآخر من دون منحه زمناً كافياً للتفكير، وهي لها بعد ذلك جانبها المعرفي المثري لوعي القارئ والمدعم لمكتباته الثقافية وتراكمت مرجعياته وأنساقها الساكنة في عقله وذهنه[١].

المبحث الأول

العنوان في اللغة والاصطلاح

يمثّل العنوان[٢]((المسند إليه او الموضوع العام وتكون كل الأفكار الواردة في الخطاب مسندات إليه او الموضوع العام، إنه الكل الذي تكون هذه الأفكار أجزاؤه))[٣].

العنون لغةً:

هو من: ((عنونَ الكتابَ عنونةً، وعنواناً: كتبَ عنوانه، والعنوان: ما يستدل به على غيره، ومنه: عنوان الكتاب)) [٤].

والعنوان أيضاً من: ((عَنَّ، العين والنون أصلان، عننتُ الكتاب، عنّه وعنّا، وعنونته، وعنّنته تعييناً، وعنوان الكتاب أبرزُ ما فيه وأظهره))[٥].

وجميع الدلالات التي نستخلصها من هذه التعريفات هو ظهور العلانية من مادة(علن)، والإثر والسمة من مادة(عنا) والمعنى والقصد(عنن)[٦].

العنونة اصطلاحاً:

هو: ((مرسلة لغوية تتصل لحظة ميلادها بحبل سري يربطها بالنص لحظة الكتابة والقراءة معاً، فتكون للنص بمثابة الرأس للجسد نظراً لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيرية وجمالية كبساطة العبارة وكثافة الدلالة وأخرى استراتيجية، إذ يحتل الصدارة في الفضاء النص للعمل الأدبي)) [٧].

وهو كذلك: ((مجموعة من العلامات اللّسانية... التي يمكن أن تدرج على رأس النص لتحدده، وتدل على محتواه العام، وتغري الجمهور المقصود)) [٨].

فالعنوان والنص تربطهما علاقة تكاملية دينامية فعّالة، وهو يجسد مجموع النص ويحمل دلالات علائقه، ويعبر عن مكوناته، ويجمع موضوعاته وذلك ما يجعله مرآة لنصّه، فيدل على محتواه

ومضمونه، وبمعنى آخر يشكل بنية حاملة للدلالة، توضع على المتن لتربط دلالتها بدلالته، فيصبح العنوان في هذه الحالة نصّاً مصغراً يختزل ويجمع المقاصد المفصلة والموسعة في النص، لأنه الحجم المختصر للعنوان المبني على التكثيف والاختزال بحيث يشكل أعلى اقتصاد لغوي ممكن تتضمن دواله حمولات دلالية كبرى، تعكس المواضيع والقضايا التي تطرق إليها المتن النصيّ[٩].

إنّ إدراك الأبعاد الدلالية للنص، ومحاولة تأويله ومن ثم إدراك مضامينه عبر متخيل يربط بين عتباته يمر عبر العنونة التي تمثل الإطار الهندسي المعماري للمتن بكامله ومن ثم الوصول الى المعنى العام له عبر نصوصه، وعلى وفق هذا فإن كلّ عنونة لاسيما في النصوص السردية إنما هي إحالة لأنساق مرجعية وثقافية تجد تفاعلها ومتلقاها في وعي وذهن الآخر كبوابة رئيسة ومدخل مركزي لفهم النص واشتغالاته وحمولاته، وهذا ما ستعمل عليه هذا الدراسة الموسومة بـ(اشتغالات العنونة مع النص السردي) في المجموعة القصصية(زليخات يوسف) للقاص(علي السباعي) في كشف الإحالات والمرجعيات لعنوانات قصصية وأثرها في تحديد المعنى الخاص لكل قصة وارتباطها بالإطار الدلالي العام للمجموعة القصصية كاملة.

المبحث الثاني
جمالية إحالة العنونة

الإحالة: علاقة بين الاسماء والمسميات، وهذه العلاقة ذات طبيعة دلالية تشترط تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المُحيل والعنصر المُحال إليه، وذلك أن العناصر المحيلة غير مكتفية بذاتها من حيث التأويل، بل تكتسي دلالتها بالعودة إلى ما تشير إليه، لذا وجب قياسها على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام وبين ما هو مذكور في مقام آخر، فهي العملية التي بمقتضاها تحيل اللفظة المستعملة على الشيء الموجود في العالم او إحالة اللفظة على لفظة متقدمة عليها، فالإحالة هي وسيلة من وسائل اتساق النصوص، إذ يشير عنصر لغوي معين الى عنصر آخر سابق او لاحق[١٠].

فالإحالة لغة: مصدر يدل على التحوّل ونقل الشيء الى شيء آخر، وأحلتُ الشيء عن مكانه أي: حوّلته عن مكانه، وتحوّل من حالٍ الى حال أي: تحوّل من شيء الى شيء[١١].

أما الإحالة اصطلاحاً: فهي((عملية معنوية ينشؤها المتكلم في ذهن المخاطب، من طريق إيراده ألفاظاً مبهمة الدلالة، يشير بها الى أشياء، او مواقف، او أشخاص، او عبارات، او ألفاظ

خارج النص او داخله، سابقة عليها او لاحقة، في سياق لغوي، او غير لغوي، يقصد بذلك الاقتصاد في اللفظ، وربط اللاحق بالسابق والعكس، بما يحقق الاستمرارية والتماسك في النص)) [١٢]، ويتم ذلك من طريقتين:

١- مباشر: هو القصد الدلالي الى ما يشير اليه اللفظ مباشرة، فالعنصر المُحيل و المُحال اليه لابدّ من أن يكونا بارزين، من دون حاجة الى التأويل.

٢- تأويل: وذلك في حالة عدم وجود المُحال إليه بشكل مباشر داخل النص[١٣].

وتؤدي الإحالة وظائف ومزايا عدّة منها:

أ- مبدأ الاقتصاد والثبات المعنوي، حيث سيظهر لنا أن استعمال الإحالة لألفاظها الكنائية التي توصف بالاختصار عمّا تحيل اليه إنما هو من قبيل مبدأ الاختصار والايجاز والتكثيف.

ب- مبدأ الدقة الدلالية، حيث يشير اللفظ الكنائي الى ذات او معنى او شيء سابق دون تكراره، إذ تكراره يمكن أن يؤدي الى لبس حين يتعدد في النص الواحد اسم معرّف او علم او مشترك لفظي... فإن ذلك يمكن أن يؤدي الى تناقض او غموض.

ت- ومن المزايا المهمة للإحالة والتي ينبغي الإشارة إليها أنها قادرة على صنع جسور كبرى للتواصل بين أجزاء النص المتباعدة والربط بينها ربطاً واضحاً، وهذا ما يؤكد أهمية الإحالة في الربط النصي.

ث- الهروب من رتابة الأسلوب مع إحكام الأتساق النصي باستعمال الوسائل المتنوعة للربط...إن الإحالة وسيلة اتساق قوية لأنها تضع ربطاً معنوياً وتماسكاً دلالياً ملحوظاً وتساعد على تحفّز المتلقي وانتباهه للعلاقة المعنوية وإعمال ذهنه بين السابق واللاحق.

ج- والإحالة لا تخضع لقيود نحوية، إلاّ أنها تخضع لقيد دلالي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المُحيل والعنصر المُحال إليه[١٤].

وتقسم الإحالة على قسمين رئيسين:

١- الإحالة النصية(داخل النص): وتسمى النصّية، وهي إحالة تركز على العلاقات اللغوية في النص نفسه، وقد تكون بين ضمير وكلمة، او بين كلمة وكلمة، او بين عبارة وكلمة، وهي على نوعين: قبليّة وبعديَّة، حسب موقع العنصر الإشاري المذكور قبلها او بعدها.

٢- الإحالة المقاميّة او السياقية: وهي من أشكال الاعتماد السياقي الذي يسهم في ربط النص بالسياق الخارجي، إذ يكون العنصر المشار إليه المرجع محدداً خارج النص(سياق الموقف) ، أي ((بمعنى إحالة عنصر لغوي إحالي على عنصر إشاري لغوي موجود في المقام الخارجي)) [١٥].

وفي الفنون السردية لاسيما القصة والرواية((يؤدي النظام الإحالي داخل الرواية عدة وظائف تواصلية تبعاً لمقصدية الكاتب، فالإحالة ليست أداة لغوية تربط أجزاء النص فحسب، وتسهم في تشكله وإطالته، وإنما هي بالأساس نتاج ذهن ابداعي من الكتّاب، تستهدف بشكل غير مباشر بناء تصور إدراكي لدى الآخر، حيث تقوم الإحالة على مبدأ رئيس هو مبدأ (التناسب)، أي تناسب الإحالة التي ينشئها المبدع مع المخزون المعرفي للإحالات في وعي المتلقي، فالإحالة ((عملية تواصلية مشتركة بين كل من الكاتب والقارئ تحقق وظائف تواصلية متعددة، منها: التعبير عن الأفكار والمشاعر، او تقديم فكرة جديدة او تأكيد فكرة ما او دحضها، او معارضتها، من خلال حركتها المستمرة داخل النص وديمومتها)) [١٦].

كما تتميز الإحالة في السرد بسمة التنامي، فهي ليست ثابتة بل متغيرة، بما يكشف عن سمات الشخصية داخل العمل السردي قصة او رواية وأطوارها المتغيرة فكرياً او وجدانياً، فتُعد الإحالة هنا وسيلة بناء السردية لإدخال معلومات جديدة عن المرجع او المراجع المستخدمة في العمل الروائي تبعاً لدلالات النص وقصدية الكاتب المبتغاة[١٧].

والإحالة المرجعية ماهي إلاّ امتداد لفعل تقني كتابي يشبه إجراء التوثيق في البحث العلمي عبر استعمال أماكن، او أقوال مأثورة، أو معاصرة، او مفاهيم ومصطلحات قارّة في ذهن المتلقي تراثياً[١٨]، فهو تعالق مع التراث الذي يشير الى وعي الكاتب وقدرته على التوظيف والتوصيل عبر صوغ المصادر في قالب جديد واستغلال الماضي في إبداع شيء جديد، وهذا يكشف عن أصالته في استلهام الماضي والتراث للتعبير عن رؤياه للعالم الذي يعيشه وتقديمه بصورة خلاّقة مبدعة، إذ يصبح الماضي التراثي علامة توضيحية يفسر بها الحاضر وتتسع معها دلالات النص المراد إيصالها للقارئ بأوجز الألفاظ مع كثافة الرمز [١٩].

والقاص علي السباعي في مجموعته القصصية(زليخات يوسف) واحد من المبدعين الذين اتخذوا من الإحالة ولاسيما الإحالة المرجعية وسيلة مهمة ينفذون منها الى المعنى والدلالة تحت سلطة التأويل والتخييل بما يدع مجالاً للقارئ لربط الحاضر بالتراث وفهم مقاصد النص القصصي، إذ

((وظف الكاتب من التراث والرموز التاريخية والموروثات الأسطورية والفنية في نتاجه القصصي... ذات دلالات موحية تنمو وتتشكل في خلق مناخ ينبض بالحركة والفعل والحياة ويعطي معاني تعبيرية مختلفة)) [٢٠].

فهو ابن مدينة الناصرية، المدينة التي تسكن الفرات وعذوبته وأهلها الطيبين، مدينة الادب والشعراء والفنانين، وهي في الوقت ذاته مدينة الفقر والجوع والاضطهاد السياســـــي والاجتماعي، يقول السباعي: ((جوهر القصة التي أكتبها يتمحور حول عذابات الانسان في عالمنا الموغل في الخراب والاضطراب والحروب والمجاعات والمذابح، والممتليء بالمأزومين والموتورين والمتوترين والمضطهدين والهامشيين... لأن الحاضر سيء وعائم بقلا جذور، هي دعوة للعودة الى الجذور حتى لا نكون سطحيين لأننا أصحاب حضارة عريقة وكل ما هو قديم أصيل وجيد وخلوق وخلاّق مبدع)) [٢١].

وهو بهذا يصرّح عن سرّ لجوئه الى الإحالة المرجعية للتراث في نصوصه القصصية ودورها في توسيع أفق الدلالة، فهي تعبير عن واقع مؤلم، وتمسك بماضٍ عريق، وانفتاح دلالي يأخذ من جمال الماضي ليغسل وجه الحاضر.

وعلى وفق ما تقدم يؤطر القاص علي السباعي مجموعته القصصية مدار البحث والدراسة بإحالة تراثية دينية، تأخذ من القصص القرآني وشخوصه منهلاً لها، ليعنونها بـ (زليخات يوسف)، فهذه المجموعة ((من أهم نتاجاته، ألّفها عام ٢٠٠٥، وهي عبارة عن عشر قصص مرتبة كالآتي: مريم البلقاء، مومياء البهلول، وساخات آدم، وتبقى فطام، والجذر التربيعي للقمر، الزاماما، احتراق مملكة الورق، عطش ذاكرة النهر، زليخات يوسف، بكاء الغربان)) [٢٢].

فالعنوان لاسيما العنونة الدينية التراثية ضرورة نصيّة يمكن عن طريقها استنطاق النص، ومحاولة تفسيره والولوج الى مداخله، لذا يمكن عدّه مصطلحاً إجرائياً ناجحاً في مقاربة النص الأدبي ومفتاحاً أساسياً يتسلح به المحلل للولوج الى أغوار النص قصد استنطاقه، فوظيفة التسمية نصّ مكثف لما يدور في النص الادبي وحكاية عنه، بحيث يصبح العنوان قادراً على استمالة القارئ للبحث عن ماهيته داخل النص، فضلاً عن وظيفته التي تهدف الى محاولة إقامة استمرارية في الابلاغ في محاولة لإقامة علاقة جديدة مع النص الرئيس، وبهذا تظهر الوظيفة الجمالية للعنوان في مساحة خاصة تسير بموازاة أبعاد جمالية أخرى تقع عليها هندسة النص، من الغلاف مروراً بعنونة الكتاب وصولاً الى المحتوى [٢٣].

وبهذه الكيفية عمل القاص السباعي على استثمار شخصيتي النبي يوسف(عليه السلام) وزليخة كعنونة مفتاحية لمجموعته القصصية، فهاتان الشخصيتان انبثقتا من قصة قرآنية تُعد واحدة من أجمل القصص القرآني بصياغتها وأسلوبها وحدثها القصصي،،، الذي أثر كثيراً في نفوس القارئين والسامعين، لاسيما الحدث القصصي المقترن بشخصية زليخة،، والتي أخذت شخصيتها بُعداً قارّاً في ذهن المسلمين وتراثهم الفكري لأنها((لعبت دوراً ثانوياً لافتاً للانتباه لا يقل في أبعاده المأساوية عن المؤامرة التي حاكها أخوة يوسف(عليه السلام)... والتي تحولت من امرأة محبة الى شخصية معادية كانت سبباً في سجن يوسف... الى امرأة إيجابية صادقة اعترفت في النهاية ببراءة يوسف وعفته بعد أن كسرها عشق يوسف لتتحطم بعدها نفسياً وجسدياً وينتهي بها المطاف بالعمل في السوق بأجر زهيد)) [٢٤].

وعلى وفق هذا تتمثل لنا شخصية زليخة كعنونة للنص بما يأتي:

١- جعل القاص السباعي من زليخة معادلاً فنياً موضوعياً جمالياً، إذ أقام بينها وهي امرأة الغواية وبين الناصرية مدينته علاقة غرام وثيقة، تجذب لمركزها العاشقين المفتنين بغوايات النساء، وجمالهن ومكرهن[٢٥]:

(الحبوبي بعبائته الكالحية يرتسم على ملامحه حزن أسمر يشغل حيز الصمت وسط الناصرية والناصرية فتاة التناقضات، زليخة التي التهمت تفاحة الخطيئة الأولى فتكومت بين خطي عرض ثلاثين واثنين وثلاثين)[٢٦].

فزليخة امرأة التناقضات، والماكرة في اصطياد الرجال وتدبير الدسائس والمؤامرت، إنما هي معادل موضوعي لفتنة مدينة الناصرية وما تفعله بقلوب أهلها، بما تبثّه فيهم من حب وولع وشغف، وهم الملتفون حول خاصرتها المتمثلة بتمثال السيد الشاعر محمد سعيد الحبوبي، عند مركز المدينة، فهو مكان العشق لديهم،، فثيمة الحب الذي وقع في قلب زليخة من يوسف(عليه السلام) يقابله عظيم الحب الذي يكنه أبناء الناصرية لمدينتهم، فكلاهما على درجة واحدة من الجذب والإثارة، فعلي السباعي يكسر أفق التوقع لدى القارئ عند مطالعته الأولى لعنوان المجموعة، إذ يتبادر للذهن بداية إنها تدور في اطار الحب والعشق المعنوي المعروف في النص القرآني، لكنه ما يلبث أن يطرح بهدفه في إقامة المرجع الديني التراثي وإحالته على الواقع الذي تعيشه مدينة الناصرية بأبنائها الطيبين الواقعين تحت نير الظلم والجوع والتعسف لاسيما من الحصار عقد التسعينيات:

(آثار خطاهم اختفاءات مسوّرة بحصار مدّ أسواره عالية حول جسد زليخة، مدينة بلا رأس، زليخة بلا فضيحة تبحث في بقايا أسلحة الحرب المحطمة عن أصابع صويحباتها) (٢٧).

لتتحول زليخة من مرجعيتها الماكرة وخططها مع النساء صويحباتها في سورة يوسف وتقطيع أيديهن بالسكاكين الى أمل ينام حوله الناس باحثين فيه عن طمأنينتهم فتكون زليخة/مدينة الناصرية في وعي علي السباعي((وفي وضوء ذلك نستدل على المخالفة التامة لما توقعناه او توقعه المتلقي في قراءته لعتبة النص(العنوان) ونستدل على ذلك بأن زليخة ولأول مرة يصرح فيها الراوي على أنها مدينة الناصرية)) (٢٨).

٢- من الأفكار المتوالدة عبر عنوان المجموعة القصصية يتبادر أن الزليخات هنا قد تكون بمثابة شطحات او أخطاء يوسف، او إشارة الى مجموعة من النساء التي تفترض إن ليوسف علاقة بهن، او أن الزليخات هي سيئات يوسف(٢٩)، وهنا تكون شخصية يوسف مرآة لصورة أهل مدينة الناصرية، وإحالة مرجعية موضوعها الوقوع تحت سلطة غوايات النساء، والغواية هنا هي الناصرية، فالمحيل والمحال اليه إنما يتمثلان هنا بمعادل موضوعي واحد وهو فقدان الارادة أمام سلطة زليخة/مدينة الناصرية:

(تجمهر المحاصرون متدافعين متزاحمين على عربته، شرعوا يتفحصون بضاعته، كل شخص اختار رأساً يناسبه، رجل مستور الساقين يقتعد كرسياً للمعاقين دفع عجلات كرسيه مخترقاً الحشد دهس قدم المعلم، لوّح المعاق بذراعه الضخم ذات الوشم المزرق حياتي فداك يا يوسف) (٣٠).

وتتمثل لنا شخصية يوسف(عليه السلام) في هذه القصة كمرجع إحالي متعالق مع النص الديني في إطار العنونة بما يلي:

١- أحالت الشخصية القرآنية للنبي يوسف(عليه السلام) مرجعيتها دون فراق او تقاطع مع دلالتها الموروثة، فيوسف(عليه السلام) هو من أنقذ أهل مصر من المجاعة، لذلك جاء وجوده في القصة كأمل عند السباعي في انقاذ البلاد ولاسيما مدينة الناصرية من براثن الحصار وما انزلته تلك الأيام السوداء بالناس من جوع شديد وحاجة وفاقة، فهو هنا أشبه بالتضرع الخفي عند السباعي الى الله عزّ وجلّ في تغيير الأحوال ليسرٍ بعد عسرٍ.

٢- إنّ يوسف ليس شخصاً بعينه بل أمة بكاملها او وطناً بأجمعه او أرضاً بعينها، او قائداً او رمزاً لقيادات فاشلة لهذه الأمة او لهذا الوطن، فيكون يوسف على وفق هذا رمزاً ذكورياً سيئاً[٣١]، وهنا تحدث القطيعة مع دلالة المرجع الديني الحقيقية عند إحالتها للواقع المعاصر.

(جأر معلم التاريخ منهمكاً يفصل من عباءة الحبوبي أكفاناً لأصابع الطباشير، تراجع المحاصرون مأزومين بين فكيّ مقص كبير حاد، منسكبين فوق الصراط، يتمايلون بنفايات الخوف يميناً، بقذارات الأوهام يساراً، وبوساخات الوسواس الى الخلف تحثّهم على عبور الصراط، كلمات معلم هرم ملَّ أكل التفاح المحرّم من شفاه زليخة) [٣٢].

فالأمة كلّها، بأناسها وقائدها، أمة غائبة عن الوعي، بعيدة عن تحقيق التغيير، ساكنة سادرة في غيّها وخرافاتها، ما بين خضوع شعب، وغوايات ولذة ولهو القائد المشغول بملذاته.

إنّ علي السباعي((ككاتب واعٍ بقوانين الراهن وقيوده وإكراهاته، وكذات، في ظمأ سردي لينابيع الموروث، بحيث لا يكف ينهل من عوالم الموغل في الذاكرة ليستثمره متوسلاً خطاب الانغماس في كتابة نوعية تحتفي بالبياض وترسم عوالم المعنى الشارد او الهارب))[٣٣]، فهذه القصة تقدم عملاً روائياً جميلاً، حيث أن عناصر القص الروائي كلها متوافرة... لقد ثبت مقدمتها لتكون مبرراً أولياً لما يتوخاه النص، إذ تبرز ظاهرة التأثير الحكائي الاخباري الذي يخرج القص الى منطقة التحقيق الصحفي عبر حكائية الخبر الواقعي المعيش متكئاً في ذلك على الاحالة النصية مع المرجع الموروث ليمنح القصة بعد ذلك عالماً كبيراً من التأويل والتخييل[٣٤].

ولم يقف ارتباط العنوان وإحالاته عن السباعي في حدود الواقع الحقيقي لمدينته الناصرية، بل نراه يتخذ من الإحالة التراثية لشخوص التاريخ دلالة أخرى يتسع من خلالها

المعنى السردي، فزليخة بدلالاتها الجسدية العنيفة تلتقي بشخصية عنيفة من شخصيات التاريخ الاسلامي العربي وهي شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي وتحديداً في خطبته المشهورة لأهل العراق عامة والكوفة خاصة والتي قال فيها: ((يا أهل الكوفة، أما والله إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها))[٣٥].

(هم بلا رؤوس يكابدون عناء أجساد انتزع الكون رؤوسها فبقوا مجرد أشباح غبارية تؤدي طقوس: الحلم، الضياع، وجوع لاينتهي لجسد زليخة، كنست الظلمة آخر مناحر الضوء بمقشة الكسوف التي هرست رؤوس المحاصرين بين رحى ستراتيجيتها، رؤى رؤوس أينعت وحان وقت قطافها) [٣٦].

فالقاص السباعي يتغلغل في أعماق التاريخ وشخوصه ليربطها مع دلالات قصة وشخوصها، فالواقع المرير الذي عاشته مدينته أيام النظام السابق وما جرى فيه على أبنائها من قتل بسبب الحروب والمواقف السياسية المناهضة للنظام، فضلاً عن ظروف أيام الحصار الاقتصادي المريرة، هذي كلها عند السباعي مجازر بشرية أودت بحياة الكثيرين من خيرة أبناء المدينة، فكأن التاريخ يعيد نفسه، ويقف الحجاج بسيفه، شاهراً إيّاه، ويعمل فيه برقاب الناس قتلاً، فهنا تلتقي زليخة بغواية جسدها وعنفوانه وعنفه مع شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي العنيفة الدموية في إحالة مبدعة خلاّقة تستمد من العنونة مادة لها.

ولم يكن ارتباط زليخة بشخوص التاريخ التراثية في القصة فقط، بل تعداه الى الشخوص المعاصرة المتمثلة بشخصية الشاعر المجاهد محمد سعيد الحبوبي، وتمثاله المتمركز في وسط المدينة، فهو عند أبناء المدينة هوى وعشق وفتنة حب سرمدية تتحرك عاطفتها وتسري في قلوب جميع أهل مدينة الناصرية، فهو معادل موضوعي لتلك العاطفة التي سرت في جسد زليخة ليوسف(عليه السلام) فكانت مركز الحدث في القصة، كما يقف الحبوبي شامخاً في مركز مدينة الناصرية يلوذ به العشاق في الزمن المرير.

(الحبوبي بعبائته الكاكية يرتسم على ملامحه حزن أسمر يشغل حيز الصمت وسط الناصرية، ولناصرية فتاة التناقضات، زليخة التي التهمت تفاحة الخطيئة الأولى)[٣٧].

فهذا النص السردي يبث فتنة الغواية والخطيئة الأنثوية ما بين(زليخة وحواء) لتلقي بظلالها على فتنة الحبوبي وغوايته مع محبيه من أهل المدينة، فهو واقف بشموخ تاريخه الجهادي حارس المدينة ومبث شكواها وعاطفتها.

الخاتمة

تمثّل العنوان في المجموعة القصصية (زليخات يوسف) رمزاً حكائياً سردياً مركزياً عبر آلية الإحالة المرجعية التراثية، دينية كانت أم شخوصاً تاريخية، فاستعمل القاص قصة النبي يوسف(عليه السلام) وشخوصها الرئيسة يوسف(عليه السلام) وزليخة، كمادة عنونة نفذ عن طريقها الى عالمه

الحقيقي الواقعي وما فيه من مرارة واضطهاد وجوع وفقر وهو في كل ذلك أحال الرمز من مرجعيته الدينية القارّة في الأذهان الى معانٍ أخرى ، سعةً للمعنى وفهماً للقصد واتكاءً على الموروث كمفسر مهم عند المتلقي يستطيع عبره التأويل والتخييل وفهم المعنى، فكانت العنونة مفتاحاً مهماً، ونقطة مركزية للدلالة وبنية سردية قائمة بذاتها تستند اليها جميع أجزاء القصة في بناء قصصي متين محكم الدلالة.

الهوامش

[١]- ينظر: العنوان في النص الأدبي بين الأهمية والوظيفة والمكانة، نوال أقطي وفوزية دندوقة، مجلة امارات في اللغة والادب والنقد، مجلد٥، العدد ٢، ٢٠١٢م: ١٥١.

[٢]- ينظر: بنية العنوان في الشعر العربي الحديث، غانم صالح سلطان، مجلة التربية والعلم، المجلد ٢٠، العدد٢، ٢٠١٣م: ٨٦.

[٣]- السيميوطيقيا والعنونة، جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، مجلد٣٣، العدد١، الكويت، ٢٠٠٤م: ١٠٧.

[٤]- المعجم الوسيط، المجمع العلمي ، مكتبة الشروق الدولية، ط٥، القاهرة، ٢٠١١م: مادة(عنون).

[٥]- معجم مقاييس اللغة، احمد بن فارس، دار احياء التراث العربي، ط٢، ٢٠١٠م: ٦٢٨.

[س]يميائية العنوان في رواية الجنّة الخضراء، عالية مبارك حسين، مجلة الدراسات العليا،، دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، (د.ت): ٨١.

[٧]- سيميائية العنوان في (مقام البوح) لـ (عبد الله العيش)، الملتقى الوطني الأول للسيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، الجزائر، ٢٠٠٠م: ٢٧١.

[٨]- شعرية كتاب الساق على الساق فيما هو الفرياق، محمد الهادي المطوي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مجلد ٢٨، العدد ١، الكويت، ١٩٩٩م: ٤٥٦.

[٩]- ينظر: سيميائية العنونة في الرواية الجزائرية، آمال شيدخ، اطروحة دكتوراه، جامعة محمد لمين، دباغين، الجزائر، ٢٠١٢-٢٠١٣م: ٤١.

[١٠]- ينظر: الاحالة ودورها في اتساق قصيدة(ساعة التذكار) لابراهيم ناجي، مجلة علوم اللغة العربية، المركز الجامعي بالوادي، العدد الاول، ٢٠٠٩م: ١٥٠.

[١١]- المعجم الوسيط، المجمع العلمي ، مكتبة الشروق الدولية، ط٥، القاهرة، ٢٠١١م: مادة(أحال).

[١٢]- الاحالة وأثرها في التماسك النصيّ دراسة في الخطبة الفدكية، أحمد موفق مهدي، تسليم مجلة فصلية محكمة، السنة الخامسة، مجلد٩، العددان ١٧ و١٨، ٢٠٢١م: ١١٣.

[١٣]- المصدر نفسه: ١١٤.

[١٤]- الربط بالاحالة والمعاقبة في القرآن الكريم، بوضياف رمضان، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقيد، كلية الاداب، الجزائر، ٢٠١٤-٢٠١٥م: ٤٦-٤٧.

[١٥]- الاحالة وأثرها في التماسك النصي، احمد موفق مهدي: ١١٥-١١٦.

[16]- دور الاحالة في تعالق الخطاب السياسي بالخطاب السردي(سهام غير شاردة انموذجاً)، عزّة شبل محمد، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، المجلد٣٥، العدد ١١٧، ٢٠١٨م: ٨٠٠-٨٠١.

[17]- المصدر نفسه: ٨٠١.

[18]- ينظر: جماليات الاحالة المرجعية والتعالق النصي، قراءة في بنية النص الشعري الجديد، عبد الناصر عبد الحميد هلال، مجلة وكالة البحث والابتكار بوزارة التعليم، السعودية، العدد٤، ٢٠٢٣م: ٥٢٩.

[19]- ينظر: شعرية الالماع المرجعي في شعر كزار حنتوش، شيماء خيري فاهم، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد ٩، العدد ٢، ٢٠١٠م: ٢٩.

[20]- سريالية القص في(مريم البلقاء) للقاص علي السباعي، طالب عمران المعموري، جريدة الزوراء، العدد ٧٧١٧، ١٦ ايار ٢٠٢٢م: ٩.

[21]- وجهاً لوجه القاص علي السباعي والناقد أمجد مجدوب، جريدة البيّنة الجديدة، السنة١٤، العدد ٣٢٥٢، ٢٠١٩م: ١٤.

[22]- ظواهر سلبية في القصة الحديثة مجموعة (زليخات يوسف) لعلي السباعي انموذجا، مها هلال محمد الحمادي، مجلة أبحاث البصرة(العلوم الانسانية)، المجلد ٢٩، العدد ١، ٢٠١٤م: ٣٩.

[23]- ينظر: غواية العنوان ومشاغلة الحدث(دراسة في روايات تحسين كرمياني)، ماجد عبد الله مهدي القيسي، مجلة ديالى، العدد ٧٠، ٢٠١٦م: ٤٨٢-٤٨٥.

[24]- تجلي الخطاب الديني في رواية(أنا يوسف) لأيمن العتوم، رفيق بو عصيدة وهشام صيد، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، كلية الآداب واللغات، ٢٠٢٠-٢٠٢١م: ٤٩.

[25]- ينظر: زليخات السباعي قصص يوسف سيميائية مشحونة بالرموز، اياد خضير، جريدة الزمان، ٢٠١٧. بحث على الموقع www.azzaman.com

[26]- زليخات يوسف(قصص)، علي السباعي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،٢٠٠٥م: ١٤٣.

[27]- زليخات يوسف: ١٤٦.

[28]- ظواهر اسلوبية، مها هلال محمد: ٤١.

[29]- المصدر نفسه: ٤٠.

[30]- زليخات يوسف: ١٥١.

[31]- ظواهر اسلوبية، مها هلال محمد: ٤٠.

[32]- زليخات يوسف: ١٥٤.

[33]- علي السباعي وسرديات النهل من الموروث، احمد الشيخاوي، صحيفة الرأي الثقافي الالكترونية، ٢٠١٩/٤/٢٠، بحث منشور على الموقع www.alrai.com .

[34]- ينظر: علي السباعي قاصاً، حازم كامل كيطان، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، كلية الدراسات العليا، الاردن، ٢٠١٥م: ٣٨.

[35]- جمهرة خطب العرب، احمد زكي صفوت،، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،،، مصر، ط١، ١٩٣٣م: ٢/٢٧٥.

[36]- زليخات يوسف: ١٤٥.

[37]-المصدر نفسه: ١٤٣.

المصادر

الكتب:

١. جمهرة خطب العرب، احمد زكي صفوت، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٣٣م.

٢. زليخات يوسف(قصص)، علي السباعي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٥م.

٣. سيميائية العنوان في (مقام البوح) لـ (عبد الله العيش)، الملتقى الوطني الأول للسيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، الجزائر، ٢٠٠٠م.

٤. المعجم الوسيط، المجمع العلمي ، مكتبة الشروق الدولية، ط٥، القاهرة، ٢٠١١م.

٥. معجم مقاييس اللغة، احمد بن فارس، دار احياء التراث العربي، ط٢، ٢٠١٠م.

الرسائل والاطاريح:

٦. تجلي الخطاب الديني في رواية(أنا يوسف) لأيمن العتوم، رفيق بو عصيدة وهشام صيد، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، كلية الآداب واللغات، ٢٠٢٠-٢٠٢١م.

٧. سيميائية العنونة في الرواية الجزائرية، آمال شيدخ، اطروحة دكتوراه، جامعة محمد لمين، دباغين، الجزائر، ٢٠١٢-٢٠١٣م.

٨. علي السباعي قاصاً، حازم كامل كيطان، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، كلية الدراسات العليا، الاردن، ٢٠١٥م.

٩. الربط بالاحالة والمعاقبة في القرآن الكريم، بوضياف رمضان، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقيد، كلية الاداب، الجزائر، ٢٠١٤-٢٠١٥م.

البحوث المنشورة:

١٠. الاحالة وأثرها في التماسك النصيّ دراسة في الخطبة الفدكية، أحمد موفق مهدي، تسليم مجلة فصلية محكمة، السنة الخامسة، مجلد٩، العددان ١٧ و١٨، ٢٠٢١م.

١١. الاحالة ودورها في اتساق قصيدة(ساعة التذكار) لابراهيم ناجي، مجلة علوم اللغة العربية، المركز الجامعي بالوادي، العدد الاول، ٢٠٠٩م.

١٢. بنية العنوان في الشعر العربي الحديث، غانم صالح سلطان، مجلة التربية والعلم، المجلد٢٠، العدد٢، ٢٠١٣م.

١٣. جماليات الاحالة المرجعية والتعالق النصي، قراءة في بنية النص الشعري الجديد، عبد الناصر عبد الحميد هلال، مجلة وكالة البحث والابتكار بوزارة التعليم، السعودية، العدد٤، ٢٠٢٣م.

١٤. دور الاحالة في تعالق الخطاب السياسي بالخطاب السردي(سهام غير شاردة انموذجاً)، عزّة شبل محمد، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، المجلد٣٥، العدد ١١٧، ٢٠١٨م.

١٥. سريالية القص في(مريم البلقاء) للقاص علي السباعي، طالب عمران المعموري، جريدة الزوراء، العدد ٧٧١٧، ١٦ ايار ٢٠٢٢م.

١٦. سيميائية العنوان في رواية الجنّة الخضراء، عالية مبارك حسين، مجلة الدراسات العليا،، دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، (د.ت).

١٧. السيميوطيقيا والعنونة، جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، مجلد٣٣، العدد١، الكويت، ٢٠٠٤م.

١٨. شعرية الالماع المرجعي في شعر كزار حنتوش، شيماء خيري فاهم، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد ٩، العدد ٢، ٢٠١٠م.

١٩. شعرية كتاب الساق على الساق فيما هو الفرياق، محمد الهادي المطوي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مجلد ٢٨، العدد ١، الكويت، ١٩٩٩م.

٢٠. ظواهر سلبية في القصة الحديثة مجموعة (زليخات يوسف) لعلي السباعي انموذجا، مها هلال محمد الحمادي، مجلة أبحاث البصرة(العلوم الانسانية)، المجلد ٢٩، العدد ١، ٢٠١٤م.

٢١. العنوان في النص الأدبي بين الأهمية والوظيفة والمكانة، نوال أقطي وفوزية دندوقة، مجلة امارات في اللغة والادب والنقد، مجلد٥، العدد ٢، ٢٠١٢م.

٢٢. غواية العنوان ومشاغلة الحدث(دراسة في روايات تحسين كرمياني)، ماجد عبد الله مهدي القيسي، مجلة ديالى، العدد ٧٠، ٢٠١٦م.

٢٣. وجهاً لوجه القاص علي السباعي والناقد أمجد مجدوب، جريدة البيّنة الجديدة، السنة١٤، العدد ٣٢٥٢، ٢٠١٩م.

المواقع الالكترونية:

٢٤. علي السباعي وسرديات النهل من الموروث، احمد الشيخاوي، صحيفة الرأي الثقافي الالكترونية، ٢٠١٩/٤/٢٠، بحث منشور على الموقع www.alrai.com .

٢٥. زليخات السباعي قصص يوسف سيميائية مشحونة بالرموز، اياد خضير، جريدة الزمان، ٢٠١٧. بحث على الموقع www.azzaman.com